

## الفصل العشرون

### عهد الحديبية

بعد ست سنوات بالمدينة - دعوة محمد الناس للحج - لاقتال ولا حرب -  
قريش تقرر الحيلولة بين المسلمين ودخول مكة - مفاوضات الصلح - أناة محمد ﷺ  
وسياسته - عهد الحديبية فتح مبين.

انقضت ست سنوات منذ هجرة النبي ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة، وهم فيما رأيت من  
جهاد مستمر متصل، بينهم وبين قريش تارة، وبينهم وبين اليهود أخرى. والإسلام في أثناء ذلك  
يزداد انتشاراً ويزداد قوة ومنعة. ومنذ السنة الأولى من الهجرة عدل محمد بقبلته عن المسجد  
الأقصى إلى المسجد الحرام، وجعل المسلمون وجهتهم بيت الله الذي بنى إبراهيم بمكة، والذي تجدد  
بناؤه بعد ذلك ومحمد ما يزال في فتوة الشباب، وقد رفع إذ ذاك حجره الأسود إلى مكانه من جدار  
هذا البيت، وذلك قبل أن يرد بخاطره أو يخاطر أحد من الناس ما سيلقى الله عليه من رسالة.

صد المسلمين عن المسجد الحرام:

وكان هذا المسجد الحرام إلى مئات من السنين خلت ووجهة العرب في عبادتهم، يحجّون إليه كل  
عام في الأشهر الحرم، فمن دخله كان آمناً. فإذا التقى المرء بأشدّ الناس له عداوة لم يستطع عنده  
أن يجرد سيفاً أو يسفك دمًا لكن قريشاً آلت على نفسها منذ هاجر محمد ﷺ والمسلمين معه أن  
يصدوهم عن المسجد الحرام، وأن يحولوا بينهم وبينه دون سائر العرب. وفي ذلك نزل قوله تعالى منذ  
السنة الأولى للهجرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ  
اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (١). ونزل كذلك قوله تعالى من  
بعد غزوة بدر: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ  
أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً  
فَدُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. إِنْ أَنْذَرْتُمْ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ  
فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٢).

وفي هذه السنوات الست نزلت الآيات كثيرة متتابعة في هذا المسجد الحرام الذي جعله الله مثابة  
للناس وأمناً. ولكن قريشاً كانت ترى محمداً وآنذنين معه كفروا بألهة هذا البيت: هبل وإساف

(١) سورة البقرة آية ٢١٧.

(٢) سورة الأنفال الآيات من ٢٤ إلى ٣٦.

ونائلة وسائر الأصنام، ولذلك كانت ترى حريمهم وحرماتهم من الحج إلى الكعبة واجباً عليها حتى يثوبوا إلى آلهة آبائهم.

شوق المسلمين إلى مكة:

والمسلمون أثناء ذلك يذوقون ألم الحرمان من أداء الواجب الديني المفروض عليهم، كما كان مفروضاً من قبل على آبائهم. والمهاجرون منهم يذوقون إلى جانب ذلك همّاً واصباً وأماً لذاعاً: ألم النفي، وهم الحرمان من الوطن ومن أهلهم فيه. وهؤلاء وأولئك كانوا في ثققتهم بنصر الله رسوله ونصره إياهم وإعلاء دينهم على الدين كله، يؤمنون بأن يوماً قريباً لا بد آت يفتح الله لهم فيه أبواب مكة ليطوفوا بالبيت العتيق، وليؤدوا فريضة فرضها الله على الناس جميعاً. وإذا كانت السنة تمر تلو السنة فتساجل الغزوة الغزوة، وتكون بدرٌ ثم أحد ثم الخندق ثم سائر الغزوات والأعمال، فإن هذا اليوم الذي يؤمنون به لا ريب آت. وما أشدهم لهذا اليوم شوقاً وما أشد ما يشاركونهم محمد في شوقهم وما يؤكد لهم أن هذا اليوم قريب!

العرب والكعبة:

والحق أن قريشاً ظلموا محمداً ﷺ وأصحابه بمنعهم من زيارة الكعبة وأداء فرائض الحج والعمرة. فلم يكن هذا البيت العتيق ملكاً لقريش، ولكنه كان ملكاً للعرب جميعاً. وإنما كانت في قريش سِدانة الكعبة وسِقاية الحاج وما إلى ذلك من العناية بالبيت ورعاية زائريه. ولم يكن اتجاه قبيلة بعبادتها إلى صنم دون آخر ليبيح لقريش منعها من زيارة الكعبة والطواف بها والقيام بما تفرضه عبادة هذا الصنم من شعائر فإذا جاء محمد ليدعو الناس إلى نبد عبادة الأصنام وإلى التطهر من رجس الوثنية والشرك، وإلى السمو بالنفس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والارتقاء في سبيل ذلك فوق كل نقص، والارتقاء بالروح إلى حيث تستطيع إدراك وحدة الوجود والتوحيد بالله، وكان من فرائض ذلك حج البيت والعمرة، فمن العدوان منعت أصحاب الدين الجديد من أداء هذه الفريضة. ولكن قريشاً خافت إن جاء محمد ومن حوله المؤمنون بالله وبرسالته، وهم من صميم أهل مكة، أن يتعلّق سواد المكّيين بهم وأن يشعروا بما في بقائهم بعيدين عن أهلهم وأبنائهم من ظلم. فيكون ذلك نواة حرب أهلية. ثم إن رؤساء قريش وأكابر أهل مكة، لم ينسوا لمحمد والذين معه أنهم حطموا تجارتهم وحاولوا بينهم وبين طريقهم المعبدة إلى الشام، وأنهم أثاروا بذلك في نفوسهم من الحقد والبغضاء مالا يخفف منه أن البيت لله وللعرب جميعاً، وأنهم لا يملكون من أمره إلا العناية به ورعاية زائريه.

المسلمون والكعبة:

انقضت ست سنوات منذ الهجرة والمسلمون يتحرّقون شوقاً يريدون زيارة الكعبة ويريدون

الحج والعمرة. وإنهم لمجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبي ﷺ بما ألهم في رؤياه الصادقة: أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤسهم ومُقصرين لا يخافون. فبا كاد القوم يسمعون إلى رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم، وحتى انتقل نبأ هذه الرؤيا إلى سائر أنحاء المدينة في سرعة البرق الخاطف. ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام؟ أفيحاربون في سبيله؟ أفيجلون قريشاً عنه عنوة؟ أم ترى تفتح قريش لهم طريقة مذعنة صاغرة.

### أذان محمد ﷺ في الناس بالحج:

كلا! لا قتال ولا حرب. بل أذن محمد في الناس بالحج في شهر ذي القعدة الحرام، وأوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم إلى الاشتراك وإيأه في الخروج إلى بيت الله آمنين غير مقاتلين. وحرص محمد في الوقت نفسه على أن يكون معه من المسلمين أكبر عدد مستطاع. وحكمته في ذلك أن تعلم العرب كلها أنه خرج في الشهر الحرام حاجاً ولم يخرج غازياً، وأنه أراد أداء فريضة فرضها الإسلام كما فرضتها أديان العرب من قبل، وأنه أشرك العرب معه ممن ليسوا على دينه في أداء هذه الفريضة. فإن أصرت قريش مع ذلك على مقاتلته في الشهر الحرام ومنعه من أداء ما يؤمن العرب على اختلاف ألهتهم به، لم تجد قريش من العرب من يؤيدها في موقفها ولا من يُعينها على قتال المسلمين، وكانت يامعائها في الصدّ عن المسجد الحرام تصرف الناس عن دين إسماعيل وعن ملة أبيهم إبراهيم. وبذلك يأمن المسلمون أن تجتمع العرب عليهم اجتماع الأحزاب من قبل، ويزداد دينهم رفعة على رفعتهم عند العرب الذين لا يؤمنون به. وماعسى أن تقول قريش لقوم جاءوا مُحرمين، لا سلاح معهم إلا سيوفهم في غمودها. يتقدّمهم الهدى الذي ينحرون، ولا هم لهم إلا أن يؤدوا بتطواف البيت فريضة تؤديها العرب جميعاً!

### استنفار غير المسلمين للحج:

أذن محمد ﷺ في الناس بالحج، وطلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج معه، فأبطأ كثير من الأعراب. وخرج في أوّل ذي القعدة أحد الأشهر الحُرّم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، يتقدّمهم على ناقته القُصواء، فكانت عدّة الذين خرجوا ألفاً وأربعمائة. وساق محمد معه الهدى سبعين بدنة؛ وأحرم بالعمرة، ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً، وأنه إنما خرج زائراً بيت الله الحرام معظماً له. فلما بلغ ذا الحليفة<sup>(١)</sup> عقص الناس الرؤوس، وليبوا بالعمرة، وعزلوا الهدى ومازوا جوانبها اليمنى ومن بينها يعبر أبي جهل الذي أخذوا بيد. ولم يحمل أحد من هذا الحاجّ سلاحاً إلا ما يحمل المسافر من سيف مُعمّد. وكانت أم سلمة زوج النبي معه في هذه الرحلة.

(١) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، وهي ميقات أهل المدينة الذي يرمون عنده للحج

### قريش وحج المسلمين:

وبلغ قريشاً أمر محمد ﷺ ومن معه وأنهم يسرون قبَلهم حاجين، فامتألت نفس قريش بالمشاوير وجعلوا يُقبلون هذا الأمر على وجوهه، يحسبونه حيلة أراد محمد أن يحتال بها على دخول مكة بعد أن صدَّهم والأحزاب معهم عن دخول المدينة، ولم يَنْتَهِم ما عملوا من إحرام خصومهم بالعمرة وإذاعتهم في أنحاء الجزيرة كلها أنهم لا تحركهم إلا العاطفة الدينية لقضاء فرض يقره العرب جميعاً، عن أن يقرروا الحيلولة بين محمد ودخول مكة، بالقأ ما بلغ الثمن الذي يدفعونه لتنفيذ قرارهم هذا. لذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه وخدمهم مائتين، وتقدَّم هذا الجيش حتى يحول بين محمد ﷺ وأم القرى، وبلغ من تقدُّمه أن عسكر بذى طوى.

### معسكران يلتقيان:

أما محمد ﷺ فتابع مسيرته، حتى إذا كان بعُسفان<sup>(١)</sup> لقيه رجل من بني كعب سأله النبي عما قد يكون لديه من أخبار قريش، فكان جوابه: «قد سمعت بمسرك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمر ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً. وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدَّموها إلى كراع الغميم<sup>(٢)</sup>. قال محمد: «يا ويح قريش! لقد أهلكتهم الحرب. ماذا عليهم لو خَلَوْا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن يفعلوا قاتلوا وبهم قوة! فما تظن قريش! فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السَّالفة<sup>(٣)</sup>» ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع. إنه لم يخرج من المدينة غازياً، وإنما خرج مُحرِّماً يريد بيت الله يؤدى عنده إلى الله فرضه. وهو لم يتخذ للحرب عُدَّتاً؛ فلعله إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش من ذلك موضع فخارها، بل لعلها إنما أوفدت ابن الوليد وعكرمة قَصْد إدراك هذه البغية حين علمت أنه لم يخرج مقاتلاً.

### حرص محمد ﷺ على السلم:

وبينا كان محمد ﷺ يفكر كانت فرسان مكة تبدو على مرمى النظر، يدلُّ مرآها على أنه لا سبيل للمسلمين إلى دَرَك غايتهم إلا أن يقتحموا هذه الصفوف اقتحاماً، وأن تدور معركة تقف فيها قريش مدافعة عن كرامتها وعن شرفها وعن وطنها؛ معركة لم يرُدُّها محمد، وإنما حملته قريش عليها حملاً وألزمته خوض غمارها إلزاماً. إن المسلمين ممن معه لا تنقصهم الحمية، وقد تكفيهم

(١) عسفان: قرية أو منتهة بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة.

(٢) كراع الغميم: واد أمام عسفان بثمانية أميال.

(٣) السَّالفة: صفة العنق، وكفى بانفرادها عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إلا به.

سيوفهم إذا جردت من غمودها لدفع عدوان المعتدى؛ لكنه يفوت بذلك قصده وقد يجعل لقريش عند العرب حجة عليه، وهو أبعد من هذا نظراً وأكثر حُكْمة وأدق سياسة إذ... نادى في الناس قائلاً مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا؟ وَكَذَلِكَ ظَلَّ مُسْتَقِرًّا رَأْيَهُ عَلَى سُلُوكِ سِيَاسَةِ السَّلْمِ الَّتِي رَسَمَ مِنْذُ خُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمِنْذُ اعْتَزَمَ الذَّهَابَ إِلَى مَكَّةَ حَاجًّا. وَخَرَجَ رَجُلٌ يَسْلُكُ بِهِمْ طَرِيقًا وَعَرًّا بَيْنَ شَعَابِ مُضْنِيَّةٍ وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ فِي سُلُوكِهَا مَشَقَّةً أَى مَشَقَّةً، حَتَّى أَفْضَتْ بِهِمْ إِلَى سَهْلٍ عِنْدَ مُنْقَطِعِ الْوَادِي الَّذِي سَلَكُوا فِيهِ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى خَرَجُوا عَلَى ثَنِيَّةِ الْمُرَارِ مَهْبِطِ الْحُدَيْبِيَّةِ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ. فَلَمَّا رَأَتْ خَيْلَ قَرِيشٍ مَا صَنَعَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ رَكَضُوا رَاجِعِينَ أَدْرَاجَهُمْ لِيَقْفُوا مَدَافِعِينَ عَنِ مَكَّةَ إِذَا دَهَمَهَا الْمُسْلِمُونَ. وَلَمَّا بَلَغَ الْمُسْلِمُونَ الْحُدَيْبِيَّةَ بَرَكْتَ الْقَصْوَاءَ (نَاقَةُ النَّبِيِّ) وَظَنَّ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهَا جُهِدَتْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّمَا حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنِ مَكَّةَ. لَا تَدْعُونِي قَرِيشٌ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحْمِ إِلَّا أُعْطِيْتَهُمْ إِيَّاهَا». ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إِلَى النُّزُولِ فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بِالْوَادِي مَاءٌ نَنْزِلُ عَلَيْهِ». فَأَخْرَجَ هُوَ سَهْبًا مِنْ كَنَانَتِهِ فَأَعْطَاهُ رَجُلًا نَزَلَ بِهِ إِلَى بَثْرِ مِنَ الْآبَارِ الْمُنْتَوْرَةِ فِي تَلِّكَ الْأَنْحَاءِ، فَعَزَزَهُ فِي الرَّمَالِ مِنْ قَاعِ الْبَثْرِ فَجَاشَ الْمَاءُ، فَاطْمَأَنَّ النَّاسُ وَنَزَلُوا.

### تفكير المعسكرين:

نزولوا، ولكن قريشاً بمكة لهم بالمرصاد، وهي تؤثر الموت على أن يدخلها محمد ﷺ عليهم عنوة. فهل يعدون لقريش عُدَّةَ النَّزَالِ فِيحَارِبُوهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا وَحَتَّى يَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا؟! فِي هَذَا فِكْرٌ بَعْضُهُمْ فِي احْتِمَالِهِ فَكَّرَتْ قَرِيشٌ. لِئِنَّ حَادِثَ ذَلِكَ وَانْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ لَقَدْ قُضِيَ عَلَى قَرِيشٍ عِنْدَ الْعَرَبِ كَلِّهَا قِضَاءٌ أُخِيرًا، وَقَدْ تَعَرَّضَتْ قَرِيشٌ لِأَنْ يَنْزِعَ مِنْهَا سَدَانَةُ الْكَعْبَةِ وَسَقَايَةُ الْحَاجِّ وَكُلِّ مَا تَفَاخَرُ بِهِ الْعَرَبُ مِنْ مَوَاسِمٍ وَمَنَاسِكٍ دِينِيَّةٍ. مَاذَا تَصْنَعُ إِذَا؟ وَقَفَ الْمَعْسَكَرَانِ يَفْكُرُ كُلُّ فِي الْخُطَّةِ الَّتِي يَتَّبِعُ؛ فَأَمَّا مُحَمَّدٌ فَظَلَّ عَلَى خُطَّتِهِ الَّتِي رَسَمَ مِنْذُ أَخَذَ لِلْعِمْرَةِ عُدَّتَهُ، خُطَّةَ السَّلْمِ وَالْجَنُوحِ عَنِ الْقِتَالِ إِلَّا أَنْ تَهَاجِمَهُ قَرِيشٌ أَوْ تَغْدِرَ بِهِ، وَهَنَالِكَ لَا يَبْقَى مِنْ انْتِزَاعِ السَّيْفِ مَفْرًا.

### رسل قريش إلى محمد ﷺ:

وأما قريش فترددت ثم رأت أن توفد إليه من رجالها من يتعرف قوته من ناحية، ومن يصده عن دخول مكة من ناحية أخرى. وجاءه بُدَيْلُ ابْنِ وَرْقَاءَ فِي رَجَالٍ مِنْ خُرَازِمَةَ يَسْأَلُونَهُ مَا الَّذِي جَاءَ بِهِ. فَلَمَّا اقْتَنَعُوا مِنْ حَدِيثِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يَأْتْ بِرَيْدٍ حَرْبِيًّا وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِلْبَيْتِ مَعْظَمًا لِحَرَمَتِهِ، رَجَعُوا إِلَى قَرِيشٍ يَرِيدُونَ إِقْنَاعَهُمْ لِيُخْلُوا بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَصْحَابِهِ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ. لَكِنْ قَرِيشًا أَتَمُّوهُمْ وَجِبْهَتَهُمْ وَصَاحُوا بِهِمْ: وَإِنْ كَانَ جَاءَ لَا بَرِيدَ قِتَالًا فَوَاللَّهِ لَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا عَنُودٌ أَبَدًا وَلَا تَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ عُنَا الْعَرَبِ. ثُمَّ بَعَثَتْ قَرِيشٌ رَسُولًا لَمْ يَسْمَعْ إِلَّا مَا سَمِعَ مِنْ قَبْلِهِ، وَلَمْ يَغَامِرْ بِأَنْ يَتَّهَمَ عِنْدَ

قريش. وكانت قريش تعتمد فيها أعدت من قتال محمد ﷺ على حلفائها من الأحابيش<sup>(١)</sup>. ففكرت أن توفد سيدهم لعله إذا رأى أن محمداً ﷺ لا يسمع له ولا يتفاهم وإياهم، ازداد لقريش نصرةً فزادهم على محمد ﷺ قوة. وخرج الحليس سيد الأحابيش قاصداً معسكر المسلمين، فلما رآه النبي ﷺ مقبلاً أمر بالهدى أن تطلق أمامه، لتكون تحت نظره دليلاً مادياً على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنما جاءوا حاجين معظمين البيت، ورأى الحليس الهدى سبعين بدنة تسيل عليه من عرضى الوادى قد تأكلت أوبارها؛ فتأثر لهذا المنظر وثارت في نفسه ثائرات دينية، وأيقن أن قريشاً ظالمة هؤلاء الذين لا يريدون حرباً ولا عدواناً. فانقلب إلى قريش دون أن يلتقى محمداً ﷺ وذكر لهم ما رأى. فلما سمعوا حديثه غاظهم وقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك. وغضب الحليس لمقاتلتهم وأندرهم أنه ما حالفهم ليصد عن البيت من جاء معظماً إياه. وأنهم إن لم يخلوا بين محمد وما جاء به نكروا بالأحابيش من مكة. وخشيت قريش عاقبة غضبه، فاسترضوه وطلبوا إليه أن ينظرهم حتى يفكروا في أمرهم.

سفارة عروة بن مسعود:

ثم رأوا أن يوفدوا حكيمًا يطمنون إلى حكمته، فتحدثوا في ذلك إلى عروة بن مسعود الثقفي. فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء مقابلتهم لمن سبقه من رسلهم. فلما اعتذروا له وأكدوا أنه عندهم غير متهم وأنهم يطمنون إلى حكمته وحسن رأيه. خرج إلى محمد ﷺ وذكر له أن ركة بيضته، وأنه إن يفضضها على أهله المقيمين بها بين جمع من أوشاب الناس ثم انصرف هؤلاء الأوشاب عنه، كان العار الخاند لقريش عاراً لا يرضاه محمد ﷺ وإن اتصلت الحرب بينه وبين قريش ما اتصلت. فصاح أبو بكر بعروة منكرًا أن ينصرف الناس عن رسول الله. وكان عروة يتناول لحية محمد ﷺ وهو يكلمه، وكان المغيرة بن شعبه واقفاً على رأس الرسول ﷺ يضرب يد عروة كلها تناول لحية محمد، مع علمه بأن عروة هو الذي دفع عنه قبل إسلامه ثلاث عشرة دية عن قتلى كان المغيرة قتلهم. ورجع عروة بعد أن سمع من محمد مثل ما سمع الذين سبقوه من أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء معظماً البيت مؤدياً فرض ربه. فلما كان عند قريش قال لهم: «يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه. لا يتوخأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يستقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإني لن يسلموه لشيء أبداً فرؤا رأيكم».

سفارة محمد ﷺ إلى قريش:

وطالت المحادثات على النحو الذي قدمنا. ففكر محمد ﷺ في أن يرسل قريش ربما لم يكن لديهم

(١) الأحابيش: أحياء من العارة (قوم من العرب رعاة) سوا بذلك لاسودادهم، أو لتجمعهم أو نسبة إلى حبشي (بضم الحاء وسكون الياء) جبل بأسفل مكة.

من الإقدام ما يُقنعون به قريشًا بالرأى الذى يرى، فبعث من جانبه رسولاً يبلغهم رأيه. لكنهم عقرُوا جمل هذا الرسول، وأرادوا قتله لولا أن منعه الأحابيش فخلُّوا سبيله. وقد دلَّ أهل مكة بتصرفهم هذا على ما يسودهم من روح الخصومة والبغضاء مما قَلِقَ له صبر المسلمين، حتى لقد فكر بعضهم فى القتال. وفيما هم كذلك يتبادلون الرسل يحاولون أن يصلوا إلى اتفاق، كان بعض السفهاء من قريش يخرجون ليلاً يرمون عسكر النبيِّ بالحجارة؛ حتى خرج منهم أربعون أو خمسون رجلاً يوماً لبصيروا من أصحاب النبي، فأخذوا أخذًا وجيء بهم إليه. أفترى ماذا صنع؟ عفا عنهم وخلَّى سبيلهم تشبُّثًا منه بخطة السلم واحترامًا للشهر الحرام أن يسفك فيه دم فى الهدْيِيَّة وهى من حرم مكة. وهبَّت قريش حين عرفوا هذا، وسقطت كل حجة لهم يريدون أن يزعموا بها أن محمدًا يريد حربًا، وأيقنوا أن كل اعتداء من جانبهم على محمد لن تنظر إليه العرب إلا على أنه غدرٌ دنى، لمحمد الحقُّ فى أن يدفعه بكل ما أوتى من قوة.

#### سفارة عثمان بن عفان:

ثم إنه عليه السلام حاول أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى بإرسال رسول يفاوضهم؛ فدعا إليه عمر بن الخطاب كى يبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له.

قال عمر: «يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسى، وليس بمكة من بنى عديٍّ بن كعب أحد ينعني، وقد عرفت قريش عداوتى إيَّاهَا وغلظتى عليها. ولكنى أدلك على رجل أعزُّ بها منى: عثمان بن عفان». فدعا النبيُّ عثمان زوج ابنته وبعته إلى أبي سفيان وأشراف قريش، فخرج عثمان فى رسالته، فلقه لأوَّل ما دخل مكة أبان بن سعيد فأجاره الزمن الذى يفرغ فيه من رسالته. وانطلق عثمان إلى سادة قريش فأبلغهم رسالته. قالوا: يا عثمان، إن شئت أن تطوف بالبيت فطَفُّ. قال ما كنت لأفعل حتى يطرف رسول الله؛ إنما جئنا لنزور البيت العتيق ولنعظم حرمة ولنؤدى فرض العبادة عنده. وقد جئنا بالهدْيِ معنا، فإذا نحرناها رجعنا بسلام. وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوةً، وطال الحديث وطال احتباس عثمان عن المسلمين، وترامى إليهم أن قريشًا قتلته غيلةً وغدرًا. ولعل سادة قريش كانوا فى هذه الأثناء يبحثون مع عثمان عن صيغة توفى بين قسَمهم ألا يدخل محمد هذا العام مكة عنوة، وبين حرص المسلمين على أن يطوفوا بالبيت العتيق ويؤدُّوا إلى رب البيت فرضه. ولعلمهم قد أنسوا إلى عثمان وكانوا فى هذه الأثناء يبحثون وإيَّاه عن تنظيم علاقاتهم بمحمد وتنظيم علاقات محمد بهم.

#### بيعة الرضوان:

منها يكن من الأمر فقد فلق المسلمون بالهدْيِيَّة على عثمان أشدَّ القلق، وتمثَّل أمامهم غدر قريش وقتلهم إيَّاه فى هذا الشهر الذى لا تُحيز فيه أديان العرب جميعًا لعدو أن يقتل فى حرم الكعبة

ولا في حرم مكة عدوه، وتمثل أمامهم غدر قريش برجل ذهب إليهم في رسالة سلم ومواعدة، ووضع كلٌ منهم يده على قبضة سيفه؛ سمة النذير وسمة البطش والغضب. ودخل في روع النبي عليه السلام أن قريشاً قتلت عثمان فغدرت في الشهر الحرام فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم». ودعا أصحابه إليه وقد وقف تحت شجرة في هذا الوادي فبايعوه جميعاً على ألا يفروا حتى الموت. وبايعوه وكلهم ثابت الإيمان، قوئ العزيمة. تمتلئ حماسة للانتقام ممن غدر وقتل. وبايعوه بيعة الرضوان التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السُّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾<sup>(١)</sup>.

فلما أتم المسلمون البيعة ضرب عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى بيعة لعثمان كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان. وهذه البيعة اهتزت السيوف في غمودها، وتبدى للمسلمين جميعاً أن الحرب آتية لا رب فيها، وجعل كلٌ ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد بنفس راضية وفؤاد مرتاح وقلب مطمئن. وإنهم لكذلك إذ تراسى إليهم أن عثمان لم يُقتل، ثم لم يطل بهم الأمر حتى جاء عثمان بنفسه إليهم. على أن بيعة الرضوان هذه بقيت مع ذلك، كبيعة العقبة الكبرى، علماً في تاريخ المسلمين كان محمد يستريح إلى ذكره لما كشف عنه من مائة الروابط بينه وبين أصحابه، ولما دل عليه من مبلغ إقدامهم على خوض مخاطر الموت لا يخافون، ومن أقدم على مخاطر الموت خافه الموت وعنت له جبهة الحياة وكان من الفائزين.

رسالة قريش إلى محمد ﷺ:

عاد عثمان فأبلغ محمداً ﷺ ما قالت قريش. فهم لم تبق عندهم ربية في أنه وأصحابه إنما جاءوا حاجين معظمين للبيت. وهم يقدرون أنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة في الأشهر الحرم. وهم مع ذلك قد خرجوا من قبل تحت راية خالد بن الوليد لقتاله وصدّه عن دخول مكة، وقد وقعت بين بعض رجالهم وبعض رجاله مناوشات. فإذا هم بعد الذي حدث تركوه يدخل مكة تحدثت العرب بأنهم انهزموا أمامه، فتضعفت في نظر العرب مكانتهم وسقطت هيبتهم. لذلك هم يصرون على موقفهم منه هذا العام إبقاءً على هذه الهيبة واستبقاء تلك المكانة. فليفكر وإياهم، وهذا موقفه وموقفهم، لعلهم جميعاً يجدون من هذا الموقف مخرجاً، وإلا فليس إلا الحرب يدخلونها طوعاً أو كرهاً. بل إنهم لها لكارهون في هذه الأشهر، تقديراً لحرمتها الدينية من ناحية، ولأنها من ناحية أخرى، إذا لم تحترم اليوم حرمتها ووقعت الحرب فيها، لم يأمن العرب في مستقبل أيامهم أن يبيشوا إلى مكة وأسواقها مخافة انتهاك الأشهر الحرم مرةً أخرى، فيجنى ذلك على تجارة مكة وعلى أرزاق أهلها.

## المفاوضات بين الفريقين - أبو بكر وعمر:

واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين كرة أخرى. وأوفدت قريش سُهَيْل بن عمرو وقالوا له: انت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا. فوالله لا نتحدثُ العرب عنا أنه دخلها علينا عنوةً أبدًا. فلما انتهى سهيل إلى الرسول جرت محادثات طويلة للصُّلح وشروطه كانت تنقطع في بعض الأحيان، ثم يعيد اتصالها حرصُ الجانبين على النجاح. وكان المسلمون من حول النبي يسمعون أمر هذه المحادثات ويضيق بعضهم بأمرها صبرًا، لتشدُّ سهيل في مسائل يتساهل النبي في قبولها. ولولا ثقة المسلمين المطلقة بنبيهم، ولولا إيمانهم به، لما ارتضوا ما تمَّ الاتفاق عليه، ولقاتلوا ليدخلوا مكة أو لتكون الأخرى. فقد ذهب عمر بن الخطاب في أعقاب المحادثات إلى أبي بكر ودار بينها الحديث الآتي:

عمر : أبا بكر، أليس يرسل الله؟!

أبو بكر : بلى؟!

عمر : أولسنا بالمسلمين؟!

أبو بكر : بلى!

عمر : فَعَلَّامٌ تُعْطَى الدِّينَةَ في ديننا؟!

أبو بكر : يا عمر الزم عَزْرَكَ<sup>(١)</sup>، فإنني أشهد أنه رسول الله!

عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله!

عهد الحديبية مارس ٦٢٨ م:

وانقلب عمر بعد ذلك إلى محمد ﷺ وتحدث وإياه بمثل هذا الحديث وهو مَغِيظٌ مُحْتَق. لكن ذلك لم يغير من صبر النبي ﷺ ولا من عزمه؛ وكلُّ الذي قاله في ختام الحديث لعمر: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني». ثم كان بعد ذلك من صبر محمد ﷺ حين كتابة العهد ما زاد في حفيظة بعض المسلمين فقد دعا عليُّ بن أبي طالب وقال له: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل: «أمسك، لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللهم» قال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم». ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سُهَيْل بن عمرو». فقال سهيل: «أمسك، لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك». قال رسول الله: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله...» ثم كتبت العهدة بين الطرفين وفيها أنها تهادنا عشر سنين، في رأى أكثر كتّاب السيرة، وستين في قول الواقدي، وأن من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، ومن جاء قريشًا مكن رجال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب من

(١) الفرز: الرجل.

العرب مخالفة محمد ﷺ فلا جناح عليه، ومن أحب مخالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد ﷺ وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قُرْبِهَا ولا سلاح غيرها.

تنفيذ هذا العهد:

وما كاد هذا العهد يوقَّع حتى حالفت خُزاعة محمدًا ﷺ وحالفت بنو بكر قريشًا. وما كاد هذا العهد يوقع حتى أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو على المسلمين يريد أن ينضم إليهم ويسير معهم. فلما رأى سهيل ابنه ضرب وجهه وأخذ بتلبيبه وجعل يحجره ليرده إلى قريش، وأبو جندل يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أوردُ إلى المشركين يفتنونني في ديني! وزاد ذلك في قلق المسلمين وعدم رضاهم عن العهد الذي عقد الرسول مع سهيل. لكن محمدًا رَجِهَ إلى أبي جندل قوله: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعلٌ لك ولن معك من المُستضعفين مخرجًا. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم». وعاد أبو جندل إلى قريش نفاذًا لعهد النبي ووعده، وقام سهيل راجعًا إلى مكة. وأقام محمد ﷺ مضطربًا مما رأى من شأن مَنْ حوله، ثم صلى واطمأن ثم قام إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه إيدانًا بالعمرة. وقد امتلأت نفسه بالسكينة والرضا. فلما رأى الناس صنيعه ورأوا سكينته تواتبوا ينحرون ويحلقون، وإن منهم من حلق ومنهم من قَصَّر. قال محمد: يرحم الله المحلقين. فتنادى الناس في قلق: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين. فتنادى الناس في قلق: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: والمقصرين. قال بعضهم: فلم ظاهرت يا رسول الله النرح للمحلقين دون المقصرين؟ فكان جوابه: لأنهم لم يَشْكُوا.

سورة الفتح:

لم يبق للمسلمين إلا أن يرجعوا إلى المدينة في انتظار أن يعودوا إلى مكة العام المقبل. وقد كان أكثرهم يحتمل هذه الفكرة على مضض، ولا يهونها على نفسه إلا أنها أمر الرسول؛ فهم ليس لهم عادة هزيمة ولا تسليم من غير قتال، وهم في إيمانهم بنصر الله رسوله ودينه لم تخالجهم ريبة في اقتحام مكة لو أن محمدًا أمر باقتحامها. وأقاموا بالحديبية أيامًا، منهم من يتساءلون في حكمة هذا العهد الذي عقد النبي، ومنهم من تحدته نفسه بالشك في حكيمته، ثم تحملوا ووقفوا راجعين. وأنهم لفي طريقهم بين مكة والمدينة إذ نزل الوحي على النبي بسورة الفتح. فتلا النبي على أصحابه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرُو بِإِذْنِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ إلى آخر السورة.

## الحديبية فتح مبين:

لم يبق إذا ريب في أن عهد الحديبية فتح مبين. وهو قد كان كذلك. وقد أثبتت الأيام أن هذا العهد حكمة سياسية وبعُدُ نظر كان لها أكبر الأثر في مستقبل الإسلام وفي مستقبل العرب كله. فقد كانت هذه أول مرة اعترفت قريش فيها بمحمد لا على أنه نائر بها خارج عليها، ولكن على أنه نُدُها وِعُدُّها: فاعترفت بذلك بالدولة الإسلامية وقيامها. ثم إن إقرارها للمسلمين بحق زيارة البيت، وإقامة شعائر الحج، اعتراف منها بأن الإسلام دين مقرر معترف به من أديان شبه الجزيرة. وهدنة الستين، أو السنوات العشر، قد جعلت المسلمين يطمنون من ناحية الجنوب ولا يحشون غارة قريش، ومهدت للإسلام أن يزداد انتشاراً. أفليست قريش ألد أعدائه وأشد محاربيه قد انتهت بالإذعان لما لم تكن تدعن له من قبل قط! وقد انتشر الإسلام بالفعل بعد هذه الهدنة انتشاراً أسرع أضاعاً من انتشاره من قبل. كان الذين جاءوا إلى الحديبية ألفاً وأربعمائة؛ فلما كان بعد عامين انبثج وجاء محمد لفتح مكة جاء في عشرة آلاف. وأشد ما اعترض عليه من ساورتهم الشكوك في حكمة عهد الحديبية ما نص عليه العهد من أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً من المسلمين لم ترده على محمد. وكان رأى محمد في هذا أن من ارتد عن الإسلام رجلاً إلى قريش لم يكن جديراً بأن يعود إلى جماعة المسلمين، وأن من أسلم وحاول اللحاق بمحمد فسيجعل الله له مخرجاً. وقد صدقت الحادثات رأى محمد في ذلك بأسرع ما كان يظن أصحابه، ودلت على أن الإسلام كسب من صلح الحديبية أعظم الكسب، ومهد لما جاء بعد ذلك بشهرين اثنين من بدء محمد مخاطبة الملوك ورؤساء الدول الأجنبية يدعوهم إلى الإسلام.

## قصة أبي بصير:

صدقت الحادثات رأى محمد ﷺ بأسرع مما كان يظن أصحابه. فقد وفد أبو بصير من مكة إلى المدينة مسلماً ينطق عليه العهد برده إلى قريش لأنه خرج بغير رأى مولاه. فكتب أُرَهر بن عوف والأخنس بن شريق إلى النبي كى برده، وبنا بكتابها مع رجل من بني عامر ومعه مولى لهم. قال النبي: يا أبا بصير: إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعلُك ولين معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك. قال أبو بصير: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يقتنونني في ديني! فكفر عليه النبي قوله، فانطلق مع الرجلين؛ حتى إذا كان بذي الحليفة سأل أخا بني عامر أن يريه سيفه؛ وما أن استوت قبضته في يده حتى علا به العامري نقتله، فخرج المولى يعدو ناحية المدينة حتى أتى النبي ﷺ، فلما رآه قال: إن هذا رجل قد رأى فرعاً. ثم قال للرجل: وبحك! مالك؟ قال: قتل صاحبك صاحبي. ثم ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحاً السيف موجهاً الحديث إلى محمد ﷺ وهو يقول: يا رسول الله، وقت نمتك وأدى

الله عنك. أسلمتني بيد القوم وقد امتنعتُ بدينى أن أفتن فيه أو يعثب بى. ولم يُخفِ الرسول ﷺ إعجابه وتمنيه لو كان معه رجال. ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص على ساحل البحر في طريق قريش إلى الشام، وكان عهد محمد ﷺ وقريش أن تترك هذه الطريق للتجارة لا يقطعها هو ولا تقطعها قريش. فلما ذهب أبو بصير إليها وسمع المسلمون المقيمون بمكة بأمره وبما كان من إعجاب الرسول ﷺ به فر منهم نحو سبعين رجلاً اتخذوه لهم إماماً وجعلوا وإياه يقطعون على قريش طريقها، وكانوا لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها. هنالك رأت قريش أنها أكبر خسارة بحرصها على هؤلاء المسلمين أن يظفروا بمكة، وقدّرت أن الرجل الصادق الإيمان، محاولة حبسه شرٌّ من إطلاق سراحه، فهو لا بدّ منتهز فرصة الفرار، مقيم على الذين حاولوا حبسه حرباً عواناً هم فيها الأخسرون. وكأنما ذكرت قريش محمداً حين هاجر إلى المدينة وقطع عليهم طريق القوافل، وخشيت أن يكرر أبو بصير هذا الصنيع فبعثت إلى النبی تسألُه بأرحامها إلا أوى هؤلاء المسلمين حتى يتركوا الطريق آمناً. ونزلت قريش بذلك عما أصر عليه سهيل بن عمرو من ردّ المسلمين من قريش إلى مكة إذا ذهبوا إلى محمد بغير رأى مواليهم. وسقط بذلك الشرط الذى أحفظ عمر بن الخطاب والذى كان سبباً في ثورته التي ثار على أبي بكر. وأوى محمد أصحابه وعاد طريق الشام آمناً.

#### المهاجرات المسلمات:

أمّا المهاجرات من قريش إلى المدينة فكان لمحمد فيهن رأى آخر خرجت أمّ كلثوم بنت عُقبَةَ بن أبي مُعيط من بعد الهدنة، فخرج أخوها عُمارة والوليد يطلبان إلى رسول الله أن يردها عليها بحكم عهد الحديبية. لكن النبیّ أبى ورأى أن هذا العهد لا ينسحب على النساء حكمه، وأن النساء إذا استجرن وجبت إجارتهن. ثم إن المرأة إذا أسلمت لم تُصبح حلاً لزوجها المشرك فوجب التفريق بينه وبينها. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ إِنَّهُنَّ يَأْتِيَنَّكُمْ فَأَنْفَقُوا مَّا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلْوَا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وكذلك صدقت الحادثات حكمة محمد ﷺ وبعد نظره ودقة سياسته، وأثبتت أنه إذ عقد عهد الحديبية وضع حجراً لا يُنقض في سياسة الإسلام وانتشاره، وهذا هو الفتح المبين.

(١) سورة المتحة آية ١٠.

ما صنع محمد ﷺ :

اطمأنت العلاقات بعد الحديبية بين قريش ومحمد ﷺ أعظم الطمأنينة، وأمن كل جانب صاحبه. واتجهت قريش كلها إلى التوسع في تجارتها، لعلها تستعيد من طريقها ما فقد أيام اتصال الحرب بين المسلمين وبينها، وحين سُدَّت عليها طريق الشام وأصبحت تجارتها معرضة للضياع. أمّا محمد ﷺ فاتجه بفكره إلى متابعة إبلاغ رسالته للناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها، ووجه نظره إلى تمهيد أسباب النجاح لطمأنينة المسلمين في شبه الجزيرة. وهذا وذاك هو ما صنع بإرسال الرسل إلى الملوك في مختلف الدول، وإجلاء اليهود عن شبه جزيرة العرب إجلالاً تاماً بعد غزوة خيبر.